

كاد - يكاد

أ. د. مكّي الحسني (*)

هذا الفعل كثير الاستعمال في البيان القرآني وفي كلام العرب. وقد اختلفت آراء اللغويين والنحويين في دلالاته وأسلوب استعماله، وهذا ما حداني على كتابه هذه «الصفحة» لعرض أهم ما قيل فيه، والتعليق عليه.

سننظر في الترايب: كاد يفعل - ما كاد يفعل - لا يكاد يفعل - كاد لا يفعل - يكاد لا يفعل - إن كاد ليفعل وغيرها.

(كاد) من أفعال المقاربة، وهي من أخوات (كان): اسمها مرفوع أبداً، وخبرها مضارع أبداً، مجردٌ من (أن) غالباً، نحو:
- كاد يغرق لولا أن بَصُرَ به قوم من أهل قريته. (ابن المقفّع). المعنى:
لم يغرق.

- عطشوا حتى لم يكادوا أن يُبصروا من العطش (الأصبهاني).

- قال الشاعر يرثي:

كادت النفسُ أن تفيض عليه إذ غدا حَشَوَ رَيْطَةَ وِبُرودِ

أي: كادت روح الشاعر تخرج حين رأى المَرَثِيَّ في كَفَنِهِ.

- قال رؤبة بن العجاج:

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

رَبُّعٌ عَفَاهُ الدَّهْرُ طَوَّلًا فَانْمَحَى قَد كَادَ مِنْ طَوَّلِ الْبَلَى أَنْ يَمْصَحَا
 أي: أزال الدهر معالم الرَّبِّعِ (المنزل الربيعي) زمنًا طويلاً فانمحي وكاد
 يذهب...

- قال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

- وقال: ﴿يَكَادُ زَيْتَهَا يَضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمَسَّ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥].

- وقال: ﴿ظَلَمْتُ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ [النور: ٤٠].

ويستعمل (كاد، يكاد) مثبتًا كما رأينا، ومنفيًا بصيغة الماضي بدخول
 (ما) النافية عليه (على المنهاج) [لأن (لا) تدخل على الماضي لتفيد الدعاء
 إذا لم تكرر!] نحو: ما كِدْتُ، ما كاد، ما كادوا. ومنفيًا بصيغة المضارع،
 بدخول (لا) عليه: لا يكاد، أو بدخول (لم) عليه: لم يكد.

لا خلاف في معنى (كاد) حين يستعمل مثبتًا، وهو: هَمٌّ وَقَارَبَ الْفِعْلَ
 ولم يفعل، كما رأينا في الأمثلة المذكورة آنفًا. هذا أشهر معانيه.

أما حين يُستعمل منفيًا فقد أورد صاحب (اللسان) في مادة (ك ي د)
 الآراء الآتية:

«الفرّاء^(١) (ت ٢٠٧هـ): العرب تقول: ما كِدْتُ أَبْلُغُ إِلَيْكَ وَأَنْتَ قَدْ
 بَلَغْتَ؛ قال: وهذا هو وجه العربية؛ ومن العرب من يُدخل (كاد) و(يكاد) في
 اليقين وهو بمنزلة الظنّ، أصله الشكّ ثم يُجعل يقينًا.

وقال الأخفش (ت ١٧٧هـ) في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ حُمِلَ عَلَى
 المعنى وذلك أنه لا يراها، وذلك أنك إذا قلت كاد يفعل إنما تعني قارب
 الفعل، ولم يفعل على صحة الكلام، وهكذا معنى الآية، إلا أن اللغة قد
 أجازت لم يكد يفعل وقد فعَل بعد شدّة، وليس هذا صحة الكلام، لأنه إذا

(١) أضفت تواريخ وفاة العلماء المذكورين هنا.

قال كاد يفعل فإنما يعني قارب الفعل، وإذا قال لم يكد يفعل لم يُقارب الفعل، إلا أن اللغة جاءت على ما فُسِّر، قال: وليس هو على صحة الكلمة.

وقال الفراء: إذا أخرج يده لم يكد يراها من شدة الظلمة، لأن أقل من هذه الظلمة لا ترى اليد فيه. وأما لم يكد يقوم فقد قام، هذا أكثر اللغة!

ابن الأنباري (ت ٣٢٨هـ): قال اللغويون: كِدْتُ أفعُلُ معناه عند العرب قاربتُ الفعلَ ولم أفعَلْ، وما كدت أفعُلُ معناه فعلتُ بعد إبطاء. قال: وشاهدُهُ قوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]؛ معناه فعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة عليهم. وقد يكون ما كدتُ أفعُلُ بمعنى ما فعلتُ ولا قاربتُ إذا أكد الكلامُ بأكادُ. قال أبو بكر^(٢) في قولهم: قد كاد فلانٌ يهلكُ؛ معناه قد قاربَ الهلاكَ ولم يهلكُ، فإذا قلت ما كاد فلانٌ يقوم، فمعناه قام بعد إبطاء؛ وكذلك كاد يقوم معناه قارب القيام ولم يقم؛ قال: وهذا وجه الكلام، ثم قال: وتكون كاد صلةً للكلام^(٣). أجاز ذلك الأخفش وقطرب وأبو حاتم؛ واحتجَّ قطرب بقول الشاعر:

سريعٌ إلى الهَيْجَاءِ، شاكٍ سِلاحُهُ فما إن يكادُ قِرْنُهُ يَتَنَفَّسُ
معناه ما يتنفسُ قِرْنُهُ. [أقول: إن زائدة بعد ما النافية، يكاد صلة، قِرْنُهُ: مثله في الشجاعة، شاكٍ سلاحُهُ: سلاحُهُ كامل. م ح].

وقال حسان:

وتكاد تكسلُ أن تجيء فراشها في جسم خَرَعَبَةٍ وحُسْنِ قِوامِ
معناه وتكسلُ [أقول: تكاد زائدة، والمعنى: تكسلُ الشابة البيضاء الحسنة القوام أن تجيء فراشها لدلالها].

(٢) يريد الأنباري.

(٣) صلة: زائدة للتوكيد.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكْدِرْنَهَا﴾؛ معناه لم يرَها ولم يقارب ذلك. وقال بعضهم: «رأها من بُعدٍ أن لم يكد يراها من شدة الظلمة». (انتهى الاقتباس من اللسان).
 نرى فيما سبق تعليلاً للقول الذي اشتهر بين النحاة وهو أن (كاد إثباتها نفي، ونفيها إثبات).

لكن الإمام الأشموني (ت قرابة ٩٠٠هـ) لم يقبل هذا القول!
 وقد عالج المجمع المصري الأستاذ أحمد العوامري^(٤) مسألة تسليط النفي على كاد، وجواز تحويله إلى خبرها، بعد أن وجد في كتب الصناعة التي اطلع عليها أن النفي مسلط على كاد نفسها. وأورد في مقاله عبارة الأشموني في شرح الكافية:

«قد اشتهر القول بأن كاد إثباتها نفي ونفيها إثبات... ومن زعم هذا فليس بمصيب. بل حكم «كاد» حكم سائر الأفعال، وأن معناها منفي، إذا صحبها حرف نفي، وثابت إذا لم يصحبها. فإذا قال قائل: كاد زيد يبكي، فمعناه: قارب زيد البكاء. فمقاربة البكاء ثابتة، والبكاء مُنتفٍ. وإذا قال: لم يكد يبكي، فمعناه: لم يقارب البكاء. فمقاربة البكاء منتفية، والبكاء منتفٍ انتفاءً أبعد من انتفائه عند ثبوت المقاربة. ولهذا كان قول ذي الرُّمّة:

إذا غيّر النأي المحبين لم يكد رسيس^(٥) الهوى من حُبِّ مَيَّةٍ ييرح
 صحيحاً بليغاً، لأن معناه: إذا تغير حُبُّ كل محبِّ، لم يقارب حُبِّي التغير.
 وإذا لم يقاربه، فهو بعيد منه. فهذا أبلغ من أن يقول: لم ييرح، لأنه قد يكون غير بارح، وهو قريب من البراح. بخلاف المخبر عنه بنفي مقاربة البراح» اهـ.
 نلاحظ أن كلام الأشموني يتفق تماماً مع المقولة: «نفي مُقاربة الفعل

(٤) مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، العدد الأول، ص ١٤٠، صدر سنة ١٩٣٤.

(٥) الرسيس: الشيء الثابت - القاموس.

أشدُّ من نفيه». ويبدو أن اجتهاد الإمام الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) جاء مماثلاً لاجتهاد الأشموني، إذ قال في الكشف في تفسير الآية: ﴿لَمْ يَكْدِرْهَا﴾ مبالغة في (لم يرها)، أي لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يراها! يبدو أن الإمام الخضري (ت ١٢٨٧ هـ) أخذ برأي الأشموني، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]: «الذبح لا يناقضه ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ الدالُّ على انتفاء الذبح بانتفاء مقاربتة، وذلك لعدم اتحاد زمنهما، الذي هو شرط التناقض، إذ المعنى فذبحوها بعد أن امتنعوا حتى لا يقربوا منه، ولا تناقض في ذلك» اهـ.

وقد وردت في سورة البقرة تفاصيل هذه القصة: فقد لَجَّ بنو إسرائيل لجاجاً طويلاً في الاستفسار والمماحكة عن صفات البقرة التي أمرُوا بذبحها، ممتنعين بذلك عن الإذعان لأمر الله، إلى أن عجزوا عن إيجاد عذرٍ يُسَوِّغُ امتناعهم، حينئذ ذبحوها.

فالسباق الذي وردت فيه الآية وما سبقها أوضح عدم اتحاد زمن الذبح وزمن الامتناع عنه.

دخول (لا) النافية على (يكاد):

لننظر الآن في بعض الآيات التي دخل فيها النفي على يكاد. يرى بعض المفسرين مثلما رأى الأشموني أن (نفي مقارنة الفعل أشدُّ من نفيه). ويرى بعض آخر أن المعنى غالباً ما يكون صعوبة أو ندرة حدوث الفعل الذي هو خبر يكاد.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَكَادُ بَيْنُ﴾ [الزخرف: ٥٢]. الكلام عن سيدنا موسى. المعنى: لا يقارب كلامه أن يظهر للثغته بالجمرة التي تناولها في صغره، أي يفهم كلامه بصعوبة.

وقال: ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٧]. الكلام عن كل متكبر عن طاعة الله. المعنى: لا يقارب إساغته وتقبُّله فكيف يتقبله؟ فهو يتلعه بصعوبة وكراهة.

وقال: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]. المعنى: لا يقاربون أن يفهموا حديثًا يُلقى إليهم من فرط جهلهم (وهم يهود المدينة) فيعلموا أن الله هو الباسط القابض، وكل ذلك صادر عن حكمة وصواب.

وقال: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]. المعنى: لا يقاربون أن يفهموا قولًا يُلقى إليهم إلا بعد بقاء، وبجهدٍ ومشقة (من إشارةٍ ونحوها كما يفهم البكم) وذلك بسبب اختلاف لغتهم عن لغة ذي القرنين.

لننظر الآن في كلام بعض الفصحاء:

١- قال الإمام الزمخشري في الكشاف (٢/ ٥٤٤): لا تكاد تسمعهم (يريد العرب) يستعملون (صار) ولكن (عاد): ما عدت أراه، عاد لا يكلمني. المعنى: نادرًا ما تسمعهم يستعملون (صار).

٢- وقال في الكشاف (٣/ ٤٢٠): «فِعْل (استجاب) يتعدى إلى الدعاء بنفسه، وإلى الداعي باللام، فيقال: استجاب الله دعاءه، أو استجاب لفلان. ويُحذف الدعاء إذا عُدي إلى الداعي في الغالب، فلا يكاد يقال: استجاب له دعاءه!». المعنى: نادرًا ما يقال ذلك.

٣- قال الثعالبي (في فقه اللغة): «لكل لفظة أسرارها وروحها بحيث لا تكاد تجد في ألفاظٍ متقاربة المعاني لفظةً تنوب عن أختها أو تقوم مقامها». المعنى: نادرًا ما تجد...

٤- قال العباسي (في معاهد التنصيص ١/ ٢٤٤): «ورد بأن لفظ الندى لا يكاد يستعمل في بذل النفس». المعنى: نادرًا ما يستعمل...

٥- قال الإمام الجرجاني (في دلائل الإعجاز ١٣٦/):

«هذا، وهو كلام لا يكاد يجيء إلا نايبًا، وإنما الكلام البليغ هو أن تبدأ بالاسم وتبني الفعل عليه كقوله: قد أغتدي والطير لم تكلم.» يقول لا يكاد يجيء إلا قلًا غير منسجم. هذا تركيب حضر. المعنى: نادرًا ما يجيء منسجمًا غير قلق.

٦- قال علي الجارم: «... كم من كنوز دُفنت في بطون الكتب اللغوية النافعة، فلا يكاد الطرف يلمح منها إلا أثرًا في صفحات المعجمات.» هذا أيضًا تركيب حضر. المعنى: قليلًا ما يلمح الطرف ذلك!

٧- قال صبحي البصام (في مجلة مجمع دمشق، المجلد ٥٨ - ص ٨٣٢):
... وهي تفيض بمصطلحاتها التي لا يكاد يُحصي عددها.

المعنى: يصعب إحصاؤها.

٨- لا يكاد يُفلح النخيل إذا أبرها البخيل! مثلٌ عربي. المعنى: لا يثمر النخيل إذا لُقح شجره البخيل! وهو من باب التشاؤم!

جواز نفي خبر كاد

قلنا إن الأستاذ العوامري وجد في كتب النحو التي اطلع عليها أن النفي كان دائمًا مسلطًا على كاد نفسها، ولم يتطرق أحد إلى جواز دخوله على خبرها. لكن العوامري وجد شاهدًا لجواز نفي خبر كاد، هو قول زهير بن أبي سلمى المُرَنيّ، في مطلع قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المُرَنيّ:
صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسُلو وأقفر من سلمى التعانيقُ فالثقلُ
قال الشارح، وهو الأعلام النحوي الشنتمريّ (وهو إمام حجة، ت ٤٧٦هـ): «أفاق القلب عن حب سلمى، وقد كاد لا يسُلو، أي لا يفتق، لشدة التباس حُبّها به. والتعانيق والثقل موضعان.»

قال العوامري: «فهذه حجة على جواز نفي خبر كاد. وجاء الشارح، وهو الإمام الحجة، فلم ير في البيت ما يستحق التنبيه أو الاستدراك. بل هو

قد أعاد (كاد لا يسلو) في أثناء تفسيره. على أنه قد يكون في كلام العرب كثير من هذا، لم يُتَح لنا الاطلاع عليه».

أي قارب قلبُ زهير عدم نسيان حب سلمى لأنه مُتَيَّم بها، لكنه في النهاية نسيها لُبُعدها منه، وإقفار المواضع التي كان يلتقي بها. نرى أن (كاد لا يسلو) معناه قارب عدم السُّلُو، ويفيد ضمناً حدوث السلو بالفعل.

وهذا التركيب (كاد لا يفعل كذا) يعني أن اسم كاد قارب ألا يفعل خلال مدة ما، ويفيد ضمناً حدوث الفعل بعد تلك المقاربة؛ كما إذا قيل: كاد الغلام لا يغرق [أي قارب عدم الغرق (قَارَبَ النجاة)، والعبارة تفيد ضمناً حدوث الغرق]. وكذلك كاد فلان لا يجيب دعوة صديقه، فالمعنى الضمني هو أنه أجاب الدعوة في النهاية.

ولو قال زهير (ما كاد يسلو) لكان المعنى على ما مرَّ بنا من كلام الأشموني، أن مقارنة السلو منفية، والسلو نفسه منفي. ولا تناقض هنا بين (صحاح) و (ما كاد يسلو) لعدم اتحاد زمن الحداثين، كما أنه لا تناقض بين (ذبحوها) و (ما كادوا يفعلون).

الخلاصة:

إذا تأملنا العبارات الثلاث:

- ١- كاد الغلام يغرق (أي قَارَبَ الغرق لكنه لم يغرق).
- ٢- ما كاد الغلام يغرق (أي ما قارب الغرق، ولم يغرق).
- ٣- كاد الغلام لا يغرق (أي قَارَبَ عدم الغرق؛ (قَارَبَ النجاة)، والعبارة تفيد ضمناً حدوث الغرق في النهاية.

نجد أن مؤدى العبارتين الأولى والثانية هو انتفاء خبر كاد، وهو الغرق.

ونلاحظ في العبارتين الثانية والثالثة اختلاف المعنى، تبعاً لنفي كاد أو نفي خبرها. ومؤدى العبارات الثلاث هو نقيض خبر كاد.

ويستوقف النظر بعد الذي مرّ بنا ما ورد في «معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة» (٥٩٠) للعدناني، وهو أنه جاء في «مفردات الراغب الأصفهاني» قوله: لا فرق بين أن يكون حرف النفي متقدماً على الفعل كاد، أو متأخراً عنه!

جواز نفي خبر يكاد

- إذا قيل: (هذه أمور تكاد لا تحدث هنا) فالمعنى أنها تُقارب عدم الحدوث، وحدثها أقرب إلى العدم منه إلى الوجود (حدثها نادر).
- ومثله: (إني أكاد لا أسمعك)، أي إن سمعي أقرب إلى العدم منه إلى الوجود (أسمعك جزئياً وبصعوبة).
- ومثله: (هذا الأمر يكاد لا يأخذ من وقتي شيئاً) أي يأخذ القليل جداً من وقتي.
- ومثله: (كانت إجابات التلميذ النبيه صائبة مدهشة تكاد لا تخطر على بال مُعلّمه).

أي كانت إجاباته تقارب عدم وقوعها في بال معلّمه.
أي إن وقوعها في بال معلّمه أقرب إلى العدم منه إلى الوجود.
نلاحظ أن التركيب (يكاد لا يفعل) يختلف كثيراً في معناه عن التركيب (كاد لا يفعل) الذي يفيد ضمناً حدوث الفعل.

التركيب (إِنْ كَادَ لَيَفْعَلُ):

(إِنْ) هنا مُخففة من (إِنَّ) التي تفيد التوكيد، ويؤتى بعدها في الكلام وجوباً بلام تسمى: اللام الفارقة (التي تفرقها عن (إِنْ) النافية).

قال تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠].

أي قاربت أم موسى أن تظهر أن الطفل الذي التقطه أعوان فرعون هو ابنها!
 وقال: ﴿إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آيَاتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢].
 قال الزمخشري في الكشاف: ... حتى شارفوا - بزعمهم - أن يتركوا
 دينهم إلى دين الإسلام لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم.
 وقال: ﴿قَالَ تَأَلَّهَ إِنْ كِدَتْ لِتُزَيِّنَ﴾ [الصفات: ٥٦]. أي تالله قاربت أن
 تهلكني باغوائك.

وقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾
 [الإسراء: ٧٣]. أي: قاربوا أن يستنزلك عن الذي أوحينا إليك...
 وقال: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ﴾ [القلم: ٥١].
 أي ينظر إليك الذين كفروا نظرًا شديدًا يكاد (يقارب أن) يصرعك
 ويسقطك من مكانك.

تراكيب أخرى:

- أجاز مجمع القاهرة في دورته الثالثة والأربعين سنة ١٩٧٧ العبارة
 الآتية وأمثالها:

«لم يكد الضيف يدخل حتى عانقه صاحب الدار» والمراد به أن
 الترحيب بالضيف حدث مع أشد الشوق، فتعاقب الدخول والعناق بسرعة،
 كأنهما وقعا في آنٍ واحد.

- جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال يوم الخندق:

«ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب».

أي تعاقبت صلاته وغروب الشمس بفاصل زمني قصير.

أو: فور انتهائه من صلاة العصر كانت الشمس غائبة إلا قليلاً!

- ومثله: ما كاد زيد يرى أستاذه حتى هبَّ واقفًا. ■